**المحاضرة رقم 06**

**7- مرحلة التوسع و ألازدهار:**

ففي سنة 897 /1492م مات «سني علي»، وكان من الضروري أن يتولى الملك أحد أبنائه، ولكن «محمد بن أبي بكر» نادى بنفسه ملكا على البلاد وخاض الحرب ضد أبناء «سني علي كما أسلفنا ذكره.

وكان «**محمد توري**» قائدا من قبيلة «**السـركي**» السودانية، ولكن أساطير سنغاي تؤكد أنه ابن أخت «سني علي» يذكر تاريخ الفتاش أن سني علي ومحمد تورى لهما أصل مشترك حيث يقول:"فأعلم أن **شي واسكى محمد ومور هوجار** جد أهل **مور كنر** وفقهاؤها كلهم من أصل واحد"**.**

وتذكر والروايات كذلك عندما وصلت أنباء اغتصاب السلطة إلى القصر صاحت أخوات «**سنـى**» قائـلات «**اسقيـا**» ومعناها «المغتصب ويقال اتخذ هذه الكلمة لقبـا لأسرتـه

الحاكمـة  **.**

وصعد محمد الأول (الكبيـر) إلى الحكم وعمره خمسون سنة،واتخذ لنفسه لقب أسكيا ، وحكم سنغاي من (899-934هـ/1493- 1528م) عكف منذ توليه الحكم على إعطاء البلاد مؤسسات قارة، فأدخل على الحكومة كثيرا من الإصلاحات**،** أعطت للمملكة وجهها الإسلامي.

ويتحلى الأسقيا محمد الأول بصفات طيبة جعلته بالمركز الذي اغتصبه إذ كان كفاءة في التنظيم السياسي ، ميالا إلى الدين والعلم شهد حكمه انتعاشا إسلاميا ، كما شهد العلماء حوله حالة لم يتمتعوا بها من قبل وسار مع انتعاش العلم – كما هي العادة في السودان ، انتعاش في التجارة الخارجية التي أضافت ثروة جديدة إلى «جاو» وتنبكتوا .

وقال عنه صاحب الفتاش « وله من المناقب وحسن السياسية والرفق بالرعية والتلطيف بالمساكين مالا يحصى ولا يوجد له مثل لا قبله ولا بعده وحب العلماء والصالحين والطلبة ، وكثرة الصدقات وأداء الفروض والتوافق وكان من عقلاء الناس ودهاتهم ، والتواضع للعلماء وبذل النفوس والأموال لهم مع القيام بمصالح المسلمين وإعانتهم على طاعة الله وعبادته وأبطل جميع ما عليه (بني علي) من البدع والمناكر والظلم وسفك الدماء وأقام الدين أتم قيام وأطلق على كل من أدعى الجريمة... ورد كل مال غصبه شيء إلى مواليهم وجدد الدين وأقام القضاة والأئمة ».

ويضيف صاحب الفتاش أن الأسقيا محمد يصلح حتى لحكم دولة بني العباس وحل دولة إحدى غيرها

وحاول الأسقيا محمد محاربة الفساد فاستدعى محمد عبد الكريم المغيلي التلمساني واستعان بنصائحه الشرعية.

وقام الأسقيا محمد الأول بفتوحات كثيرة بدأها بمملكة الموسى (موسى) فأعلن الحرب عليها، وأستشار الفقهاء وأهل العلم .

واستطاع أن يضم إلى مملكته بقية مملكة مالي القديمة، واتجه نحو الشرق من بلاد الهوسا وتوغل في بلاد الايبر (بلاد الطوارق) وفرض عليهم دفع الجباية. وفي الشمال الشرقي وضع الأسقيا يده على تغازا وأغادس البربريتين ، وأمدت هذه الفتوحات دولة سنغاي بثروة هائلة، إذ امتدت دولة سنغاي من صحراء النيجر وبحيرة إيـر شرقا، إلى حوض السنغال غربا، ومن « **سبحـو**» على النيجر جنوبا إلى الصحراء الكبرى شمالا، وكانت مدينة غاو عاصمة هذه الإمبراطورية الواسعة

وتسرب نفوذ سنغاي إلى شمال نيجيريا حيث خضعت كل إمارات الهوسا لمملكة سنغاي وهي: : «**كشـن « (أو كاتسينا)**و«**غوبير وكانـو**»، وزنقرة وزاريا سنة 1513م**[[1]](#footnote-2)** وكانت الأسقيا محمد الكبير مضرب الأمثال فعم العدل وانشر الأمن، ودرب جيشا كبيرا ليحمى به الدولة، ثم أنه شجع إنشاء المدارس في تنبكت، وأشتهر في أيامه مسجد سنكرى، وصارت تلك المدينة منارا للعلم والثقافة الإسلامية، كما أنه أقام في جني وجاغ (أو جاو) معاهد للعلم، وقدر مكانة رجال الدين والعلماء وقربهم إليه وكان ممن أجتذبهم إليه العالم محمد المغيلي.

وما أن اطمأن الأسقيا محمد الكبير وأحرز رضا سكان مملكته بعد جهوده في تنظيم المملكة حتى قرر السفر إلى المشرق لأداء فريضة الحج والإطلاع على أحوال ممالك الشرق وطرق تسييرها وبذلك يضمن في أعين شعبه الأمور المعنوية من وراء الحج ثم يكسب خيرات أخرى من مشاهداته لممالك الشرق.

وغادر بلاده قبل موسم الحج بعشرة أشهر ( 901هـ/نوفمبر 1495م) وكان في ركبه ألف وخمسمائة فارس و مجموعة من العلماء والأعيان، وأخذ معه ثلاثمائة ألف دينار.

واستقبل في القاهرة استقبالا رسميا حافلا، وفي مكة قلده شريفها بردة وعمامة وسيفا ونظم على شرفه حفلة خاصة تسلم خلالها (من الخليفة العباسي المتوكل) آخر الأمراء العباسين لقب الخليفة الأول على بلاد التكرور كما اجتمع مع زعماء المسلمين.

وفي مكة ابتاع حديقة وأقام مكانا ينزل به الحجاج القادمون من بلاد السودان، وأمضى الأسقيا وقته بين العلماء والتقى بالسيوطي الذي تأثر كثيرا بآرائه، واستطاع إغراء عائلة من الإسراف لمرافقته عند عودته، وقدم الولاء للخليفة العباسي المتوكل ، الذي عينه من قبله واليا على بلاد التكرور، كما ذكر سالفا.

واشتهر الأسقيا محمد في رحلته إلى الحج بكثرة الإنفاق إلا أنه لم يظهر بالأبهة التي ظهر لها موكب منسى موسى قبل قرن ونصف قرن من ذلك.

ومما يلاحظ أن هذه الحجة لها آثار إيجابية، فعند رجوعه صب اهتمامه كله على محاربة الوثنيين في الجنوب لحملهم على اعتناق الإسلام وعلى تنظيم الدولة بمقتضى ما شاهده في

الديار الشرقية، وتنصيب قاضي تنبكت للقضاء والإفتاء، وقضاة مدن المملكة الآخرين.

وكانت خاتمة حياة الأسقيا الكبير مشبعة بالمآسي فقد ثار ضده ثلاثة من أولاده برعاية أكبرهم عندما بلغ من الكبر عتيا (96 سنة) فاستنجد أسقيا بشقيقه يحي فقتلوه وتخلصوا منه وساروا إلى «**غـاو**» وأجبروا أباهم على التخلي عن العرش لابنه موسى ثم نفوه إلى جزيرة نائية سنة 934هـ/ 1527م في النيجر وبعد أعوام أعاده ابنه إسماعيل إلى جاو حيث عاش بقية حياته وقد كف بصره وقاسى خلالها الألم واليأس ثم قضى نحبه عام 949هـ/1542م **.**

**8- مرحلة الضعف و الانهيار:**

اعتلى عرش سنغاي ثمانية ملوك من 935هـ/ 1528 إلى1000هـ/ 1591م، وكان جلهم يتصفون بالقسوة والأنانية والفجور ورجع يقتل بعضهم بعضا، وتركوا العمل العظيم الذي خلفه لهم المؤسس الحقيقي لمملكة سنغاي الاسكيا محمد "فتقوض أركانه، ركنا بعد آخر".

وخلفاء الأسقيا محمد الكبير هم:

**-الأسقيا موسى 935هـ-937م/1528-1531م.**.**-الأسقيا محمد الثاني 937-943هـ/1531-1537م[[2]](#footnote-3)**.**-الأسقيا إسماعيل 943هـ-946هـ/1537-1539م**.

**-الأسقيا إسحاق الأول 946-956هـ/1539-1549م-الأسقيا داوود 965هـ-990م/1539 -1582م** ، **-الأسقيا محمد الثالث: 990هـ-995هـ/1583-1586**،**-الأسقيا محمد بأن: 995هـ-997هـ/1586-1588م**.**-إسحاق الثاني: 997-1000هـ/1588-1591م**.

**9- الغزو المغربي ونهاية مملكة سنغاي :**

انطلقت الحملة يوم 29 أكتوبر 1590، وتضم جيشا تعداده ثلاثة آلاف مقاتل وألف من الفرسان والمشاة وخمسمائة من الخيالة الخفيفة المسلحين بالرماح، وستة مدافع كبيرة وأخرى صغيرة حملت على الإبل، وكانت غالبية رجال المدفعية من أصل أوروبي (إسبان، وبرتغاليون، أتراك) يقودهم القائد «**جـودر**» وهو من أصل أسباني وضم الجيش مجموعة من المسيحيين الذين يحملون البنادق، كانوا من أسرى معركة القصر الكبير ومن خلال هذا الوصف نلاحظ أن عدد المغاربة في الحملة لا يتعد ألف وخمسمائة مقاتل وبذلك تم استخدام اللغة الاسبانية بين أفرادهاوتنتقل مع الحملة ما لا يقل عن ثمانية آلاف من الإبل والجواد محملة بقراب الماء والخيام.

وأسندت قيادة الجيش **للقائد جودر** وهو من أصل اسباني، وقع في أسر المغاربة وهو صغير وربى في القصر الملكي في مراكش امتاز بجباية الخراج وحسن الإدارة والتنظيم، ولم تكن درايته كبيرة على قيادة الجيش.

وكان هدف الحملة السيطرة على غاو وتنكيت والقضاء النهائي على دولة سنغاي وضم حدودها للمغرب وجاء في تذكرتي النسيان أن: «جودر فتى أزرق وهو أول من مراكش إلى سنغاي طلوعه في العام التاسع وتسعون ومدة سلطته تسعة أشهر من المحرم إلى الشوال السادس وعشرين منه ثم عزل، وفي مدته تحرك إلى سنغاي وقاتل مع أسقيا إسحاق بن اسقيا داوود وكسر جيشه طرفة عين» .

وانطلقت من مراكش متجهة نحو جبال الأطلس ثم درعه، ومن بعدها تمر بتغازا وتاوديني إلى ولاته ثم أروان، وقطع الجيش تلك المسافة في حوالي شهرين على الأقل،

وأصابه خلال السير الجوع والعطش مات بسبب ذلك ثلثي الرجال ولم يبق إلا ألف رجل.

وفي فبراير 1591 وصل **جـودر** مع جيشه إلى نهر النيجر عند قرية كوبـر واقتربوا من العاصمة غـاو.

وبالمقابل لم يستعد أهل نسعى للحرب ولم يأخـذوا احتياطاتهم الكافية لاعتقـادهم أن الجيش المغربي لا يمكن له أن يجتاز الصحـراء، ولم يقوموا بتسهيم الآبـار وتحضيـر الأسلحة مما سهل الأمر على المغاربة، وزحف **جـودر** على غاو، واستعد إسحاق الثاني بجيش صغير، والتقى الجيشان في «تندي قرب نهر النيجر» ، وتم تدمير مملكة سنغاي شهر فبراير1591 في معركة « Tondibi » من طرف المغاربة ليفتح بعدها غرب السودان على فترة كبيرة من عدم الاستقرار .

ولم يصمد جيش سنغاي وانهزم بسرعة فائقة بسبب قلة تدريب وضعف الأسلحة وظل بعضهم يضرب برماحه حتى فني عن آخره .

ودخل **جـودر** العاصمة (غـاو) أو (جـاو)، وحاول إسحاق الثاني التفاوض معه بدفع الجزية السنوية وتقديم هدية من مائة ألف مثقال من الذهب ومائة من العبيد، وقد قبلها **جودر** ولكنه بقي ينتظر رد السلطان.

وأرسل **جـودر** بعته إلى السلطان بها العبيد وحمولة من الذهب ثم استولى بعد ذلك على مدينة تنبكت دون مقاومة.

وأكد **جودر** في مراسلته إلى السلطان عن خيبة أمله بوجود بلاد فقيرة وليست مدنها إلا قوى صغيرة يلتقي فيها التجار، أما الذهب فلم يكن موجود بها، فهو يستخرج من مناطق بعيدة، قصر ملكهم هو أبسط من منازل العامة.

ورغم ذلك فقد أقام المنصور الذهبي الأفراح والاحتفالات في مراكش لمدة ثلاثة أيام وجاءت الوفود من كل أجزاء الدولة لتقديم النهائي، وألقى الشعراء قصائد لتنجيد عظمه المنصور، ووصفوه بأنه أساس هذا المجد الذي ينتمي إليه ولم يصل إلى علم أحد ما حدث للجيش ذكره من مآسى وحوادث والمعلومات التي وصلت إلى السلطان مفادها أن البلاد فقيرة ولم يكن به ذهبا**[[3]](#footnote-4)** .

وغضب السلطان مولاي أحمد المنصور من قائده على توقيف القتال والتفاوض مع إسحاق الثاني، فأراحه ونصب مكانه القائد محمود بن زرقون.

وعند وصول هذا الأخير إلى مملكة سنغاي وجد أن مشكلة محاربة الأسقيا هي مشكلة قوارب، فقطع كل الأشجار التي حول تنبكت، واقتلع أبواب المنازل ووضع السفن التي تمكنه من أن ينقل جيشه إلى الشاطئ الآخر، والحق بعد ذلك هزيمة أخرى بإسحاق الثاني في المناطق التي التجأ بها، وانسحب هذا الأخير وأصحابه ومات بقليل بعد ذلك سنة 1592م .

وعندما لاحظ خلف **إسحاق الثاني**، «**محمد كـاغ**» سيطرة المغاربة على البلاد اتصل بالقائد محمد بن زرقون، وحضر مع جيشه ليقدم الولاء للمنصور، فقبض عليهم جميعا ووضعوا في الأغلال ثم قتلوا .

وواصل المقاومة الأسقيا نوح بن الأسقيا داوود، فطارد القائد محمود بن زرقون وأوقع به الهزيمة في عدة مواقع.

ولم يصمد الأسقيا طويلا بل قتل سنة 928هـ1594/م، وبموته انتهت مملكة سنغاي ، وانهارت حدودها من أعالي السنغال إلى حدود نيجريا الحديثة بعد الغزو المغربي ، وبذهابها لم تبق بعدها قوة ذات خطر في بلاد السودان الغربي.

1. . G. P. Murdock, *Africa, its Peoples and their Culture History* .new York, 1959, p 138. www .wikipedia.org. 12.11.2010 [↑](#footnote-ref-2)
2. . محمود كعت:نفس المصدر ، ص85. [↑](#footnote-ref-3)
3. . عبد الرحمان زكي: المرجع السابق، ص156. [↑](#footnote-ref-4)